ابو الطيب المتنبي (٩١٥ـ٩٦٥)

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف (بيروت)

٢

الرجل

اخلاقه وصفاته

الأنفة والكبرياء

اول ما يلفت نظر دارس المتنبي تلك الانفة الشديدة والكبرياء القوية الظاهرة في حب السيادة والترفع عن الدنايا واحتقار الغير والرغبة في مساواة الملوك والامراء. وهي عواطف سامية ترافق الشاعر في كل حياته فتبدو في اعماله وتصرفاته جميعها، وتظهر في كل قصيدة نظمها سواء اراد المدح والهجاء او الفخر والحكم. وقد رأينا في حياته الشواهد العديدة على هذه العظمة الفطرية

وكان من نتيجة حب العظمة هذا تهوّرات عديدة رافقت صاحبها من صباه اذ دعا الناس الى بيعته فألقي القبض عليه وحُبس؛ الى كهولته اذ حمله الكبر على رفض نصيحة ابي النصر الجبلي، فسار وحيداً في مجاهل البادية حتى قتله فاتك الاسدي

ومن انفته وكبريائه تولّدت فيه صفات عديدة حسنة كالشهامة والصبر والنجدة والحمية والفخر بالنفس وبالاعمال، والعفّة واطراح الملاذّ المُحطّة كشرب الخمر وما يتبعه من المجون والهزليات. كما انه تولّد منها ايضاً الحقد والفجة واحتقار الغير، مما يراه المطالع في كل قصيدة من قصائده

وقد بلغ من كبره انه كان يشترط على ممدوحيه من الامراء ألّا ينشدهم الّا جالساً وألّا يقبّل الارض بين يديهم؛ فيقبلون ذلك رغبةً في شعره. وقد ذكر الافليلي في الإشارة الى هـذا الامر ان المتنبي انشد سيف الدولـة في الميدان القصيدة التي مطلعها:

لكل امرئ من دهره ما تعوّدا وعادة سيف الدولة الطعن في العدى

فلما عاد سيف الدولة الى داره استعاده اياها فانشدها قاعداً. فقال بعض الحاضرين يريد ان يكيد ابا الطيب: «لو انشدها قائماً لأسمع. فان اكثر الناس لا يسمعون.» فقال ابو الطيب: «اما سمعت اولها: لكل امرئ من دهره ما تعوّدا!»

وان هذه الصفات الشاخة جعلت ابا القاسم الطبسي يصف المتنبي ذاك الوصف الدقيق فيقول:

كان من نفسه الكبيرة في جيشٍ ومن كبريائه في سلطانِ

البخل

ومن غريب صفات المتنبي التي لا تنطبق على اخلاقه من حب السيادة والحرص على حسن الاحدوثة والترفع عن صغائر الامور، ولا تتفق مع شعره الملآن بالعواطف السامية واحتقار الماديات، الرغبة في الحرص وشدة البخل. حتى ضربت بشحّه الامثال وتنوقلت عنه نوادر في هذا الباب مضحكة غريبٌ صدورها عن رجل كالمتنبي، مما دفع ابا بكر الخوارزمي الى القول: «كان المتنبي قاعداً تحت قول الشاعر:

وان احقّ الناس باللوم شاعرٌ يلوم على البخل الرجال ويبخلُ»

وقال ابو بكر: «حضرت عنده يوماً بجلب وقد احضر مالاً من صلات سيف الدولة. فصُبّ بين يديه على حصير قد افترشه ووُزن واعيد في الكيس. واذا بقطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال قد تخللت خلل الحصير فاكبّ عليها بجامعه ينثرها ويعالج استنقاذها منه ويشتغل بذلك عن جلسائه حتى توصّل الى اظهار بعضها فتمثل ببيت قيس ابن الخطيم:

تبدّت لنا كالشمس بين غمامةٍ بدا حاجبٌ منها وضنّت بحاجبِ

«ثم استخرجها وامر باعادتها الى مكانها من الكيس. فقال بعض جلسائه: «أما يكفيك ما في هذه الاكياس، حتى ادميتَ اصبعك لاجل هذه القطعة؟» فقال: «انها تحضّر المائدة!» (١

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر (ج ١: ص ٨٤-٨٥) - وتوفيق البكري - المنتظف (١٢ [١٨٩٣]: ٣٦٦)

على ان للمتنبي عذرًا في الافراط في الحرص قد يكون مشروعاً في نظر من ذاق لوعة الفقر ، فاحتُقر ؛ وكان ذا نفس كبيرة كنفس المتنبي . وقد لمح شاعرنا في تصرّفه العيب وحرصه الشائن فقيل له :

قد شاع عنك البخل في الآفاق حتى صار مثلًا وانت تمدح في شعرك الكرم واهلهُ وتذم البخل ، الستَ القائل :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقرٍ فالذي فعل الفقرُ

«ومعلوم ان البخل قبيح ومنك اقبح لانك تتعاطى كبر النفس وعلوّ الهمّة وطلب الملك والملك ينافي سائر ذلك !»

فقال : «ان للبخل سبباً ! وذلك اني اذكر وقد وردت في صباي من الكوفة الى بغداد . فاخذت خمسة دراهم في جانب منديلي وخرجت امشي في اسواق بغداد . فمررت برجل يبيع الفاكهة فرأيت عنده خمسة من البطيخ باكورة . فاستحسنتها ونويت ان اشتريها بالدراهم التي معي . فتقدمت اليه وساومته ثمنها . فقال لي بازدراء : «اذهب فليس هذا من اكلك» . فتماسكت معه وقلت : «ايها الرجل دعْ ما يغيظ واقصد الثمن» . فقال : «ثمنها عشرة دراهم» . فلشدّة ما جبهني به لم استطع ان اخاطبه في المساومة . فوقفت حائرًا ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل . واذا بشيخ من التجّار قد مرّ بنا فوثب اليه صاحب البطيخ ودعا لهُ وقال : «يا مولاي هذا بطيخ باكورة ! باجازتك احمله الى منزلك» . فقال الشيخ : «ويحك ! بكم هذا ؟» فقال : «بخمسة دراهم» . فقال : «بل بدرهمين» . فباعه الخمسة بدرهمين وحملها الى داره ودعا لهُ وعاد فرحاً مسرورًا . فقلت : «يا هذا ما رأيت اعجبَ من جهلك . استمتّ عليَّ في هذا البطيخ وفعلت فعلتك التي فعلت وكنت اعطيتك في ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولًا ؟» فقال : «اسكت ! هذا يملك مائة الف دينار» . فقلت في نفسي : «ان الناس لا يكرمون احدًا اكرامهم من يعتقدون انهُ يملك مائة الف دينار» . واعتمدت ان يكون عندي مثلها . فانا اجدُّ في ذلك على ما تراه حتى يقولوا : «ان ابا الطيب قد ملك مائة الف دينار» . (١

١) رواها توفيق البكري في المقتطف (١٧ [١٨٩٣] : ٢٧٠

الشاعر

آثاره

في النثر

ذكر بعض المؤرخين المتنبي نثرًا لطيفاً يذكرنا بتنميقه وجمع معانيه نثرَ البديع والصاحب. على ان الواصل الينا منه لا يكاد يتجاوز الاسطر القليلة. من ذلك ما نقله ابن خلكان ان ابا الطيب مرض بمرض فكان لهُ صديق يعوده، فلمَّا ابلَّ انقطع عنهُ. فكتب اليه: «وصلتني، وصلك الله، معتلًّا، وقطعتني مُبلًا فإن رأيت ان لا تحبب العلّة اليَّ ولا تكدر الصحة عليَّ فعلتَ ان شاء الله»

في الشعر

اما آثاره المشهورة فكلها في الشعر وقد جمعت من زمن بعيد في ديوانه

الديوان

جمعه – شروحه – طبعاته

كان المتنبي يختار من قصائده احسنها فيكتبها في دفاتر يحملها معه اينما توجه فيعيد النظر فيها ويقرأها عليه بعض النحويين كابن جني وغيره فيصحح فيها ما يبدو له. واذ قُتل جُمعت اشعاره حالًا ورُتبت على الحروف الابجدية. وقد طُبع ديوانه مرّات في الهند وفي مصر والشام واوربا. وكانت شهرته اثارت الحسد في قلوب الكثيرين فتصدّوا لانتقاده وتخطئته فقام يدافع عنه الكثيرون ايضاً منذ الف سنة الى اليوم حتى بلغت شروح الديوان والتعاليق عليه نحو الخمسين مصنَّفاً يُعرف منها اليوم:

شرح ابن جني (†١٠٠١) في ثلاثة مجلّدات منهُ نسخة خطّيّة في مكتبة لينغراد واخرى في الاسكوريال. وقد علّق عليه ابن فورجة سنة ١٠٤٥ كتاباً سمّاه «التجني على ابن جني» منه نسخة في مكتبة الاسكوريال

شرح ابراهيم الافليلي (†١٠٤٩) منه نسخة في مكتبة برلين

شرح ابي العلاء المعرّي (†١٠٥٧) منهُ نسخة في مكتبة منشن (مونيخ) واخرى في المتحف البريطاني وثالثة في لينغراد

شرح التبريزي (١١٠٨) منه نسخة في مكتبة باريس

وفي مكاتب اوروبا شروح غير هذه ولكنها اقل من اسماء الشرّاح

اما الشروح المطبوعة فاشهرها:

شرح الواحدي (†١٠٧٥) طُبع في بمباي سنة ١٢٧١هـ. (١٨٥٤م) وطبع طبعة حسنة في برلين سنة ١٨٦١ مع مقدّمة باللاتينيّة وفهارس واسعة بعناية المستشرق الالماني فريدرخ ديتريشي (Dieterici). وترتيب القصائد فيه على حساب التاريخ لا على الحروف الابجدية منهُ نسخة خطيّة في المكتبة الشرقيّة للآباء اليسوعيين

شرح العكبري (١٢١٩) طبع في بولاق سنة ١٨١٠ وفي مصر سنة ١٢٨٧هـ. (١٨٧٠) ثم طبع طبعة ثالثة سنة ١٣٠٨هـ. (١٨٩٠) وبهامشه كتاب «الصبح المنبي عن حيثية المتنبي» ليوسف البديعي (†١٦٦٢)

واحدث شروح ديوان المتنبي واجمعُها الشرح الذي بدأ به العلّامة الشيخ ناصيف اليازجي واتمّه ابنه الشيخ ابراهيم وسمّاه «العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب» وقد سار في ترتيب قصائده على طريقة الواحدي وطبعه لاول مرّة في بيروت ١٨٨٢ــ١٨٨٤. ثم طبع غير مرّة

ولديوان المتنبي طبعات عديدة غير ما ذكرنا منها طبعة في بيروت مع الشرح بعناية المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٦٠ وطبعة في بلاد الهند، مرتبة على الحروف الابجدية مع شرح مأخوذ من شرحي العكبري والواحدي في سنة ١٢٨٣هـ. (١٨٦٦) واخرى سنة ١٣٠٢هـ. (١٨٨٤). ومنها طبعة صادر في بيروت سنة ١٩٠٠

ترجماته – الدروس الفنية

كان من اعتبار المستشرقين لشاعرنا الكبير انهم ولعوا منذ اوائل القرن التاسع عشر بدرس طريقته، ونقل بعض اشعاره الى لغاتهم. فترجم المستشرق انطونيوس هورست (Horst) الى اللاتينية القصيدة المعروفة في مدح الحسن بن اسحق التنوخي التي مطلعها:

هو البينُ حتى ما تأتّى المَزَائقُ ويا قلبُ حتى انت مِمَّن أُفارقُ

ونشرها في رومية سنة ١٨٢٣ مع اصلها العربي وشروح وافية ومقدّمة باللاتينية

وفي السنة التالية طبع المستشرق الالماني هامر (Hammer) في ڤينا بحثاً واسعاً عن المتنبي مع ترجمة قسم كبير من اشعاره الى لغته الالمانية

وفي السنة نفسها نشر المستشرق الفرنساوي غرانجيريه دي لا غرانج (Grangeret de la Grange) في (J. As. 1824, II p. 80-88) ترجمة لقصيدة المتنبي في مدح ابي الفوارس دلير بن لشكروز . ثم اتبع هذه الترجمة بترجمات للقصائد في مدح ابي شجاع فاتك ورثائه ونشر الجميع مع الاصل العربي في مجموعته المطبوعة في باريس سنة ١٨٢٨ باسم (Anthologie arabe)

وكان المستشرق الفرنساوي الكبير ساشتر دي ساسي (de Sacy) قد ترجم عدة قصائد للمتنبي في سيف الدولة ونشرها مع الاصل العربي وشروح وافية في مجموعته الكبيرة المطبوعة في باريس ١٨٢٦ باسم (Chrestomathie arabe)

وفي سنة ١٨٤٠ نشر المستشرق جونبول ترجمة لاتينية لبعض اشعاره ضمنها دروساً نقدية في الشاعر وطريقته

اما الدروس النقدية والاحكام الادبية للمتنبي او عليه، فقد بُدئ بها منذ نحو الف سنة ولم تنتهِ بعد . ولا يتّسع بنا المجال لذكرها كلها بل نكتفي باشهرها :

فمن درس المتنبي القاضي الجرجاني الذي وقف بين المتناقشين موقف الحكم ذاكراً ما للمتنبي وما عليه من المحامد والمآخذ في كتابه المشهور بالوساطة بين المتنبي وخصومه . وقد طبع هذا الكتاب في صيدا سنة ١٣٣١هـ (١٩١٢) بعناية احمد عارف الزين صاحب مجلة العرفان، مع مقدمة وفهارس واسعة

ومنهم ابو منصور الثعالبي فافرد في يتيمته نحو التسعين صفحة لذكر محاسن المتنبي ومساوئه مع اعطاء الحكم الصائب . وقد طبعت اليتيمة في دمشق، وطبع البحث في المتنبي على حدة في مصر

ومنهم ابو سعيد محمد بن احمد العبيدي وكان ممن يغيظهم المتنبي فالف كتاباً قصد فيه «الابانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى» . وقد طبع كتابه في مصر، اما ابو علي الحاتمي فكان الطف منه لهجة وارفق حكماً فاراد ان يبيّن توارد المعاني بين المتنبي وارسطو دون ان يتهم المتنبي بالسرقة فقابل بين حكم الشاعر واقوال

الفيلسوف . وقد نشر هذه المقابلة التي انطون بولاد في كتابه « راشد سوريا » في بيروت سنة ١٨٦٨ ثم طبعت في مطبعة الجوائب . وطبعها مؤخراً الالماني روشر (Roescher) عن نسخة خطّية جميلة صوّرها بالفوتغراف . ومنها نسخة بديعة خطّية في مكتبة كلّية القديس يوسف

ومن يجب ذكرهم من دارسي المتنبي يوسف البديعي صاحب كتاب «الصبح المنبي عن حيثية المتنبي» وقد نشر مؤلفه على هامش شرح العكبري في مصر سنة ١٣٠٨ه. (١٨٩٠)

اما المستشرقون فاشهر من ألف منهم في المتنبي رايسكي ودي ساسي وبروكلمن وهامر ونيكلسون، وديتريشي الذي نشر شرح الواحدي وافرد كتيباً للمتنبي وسيف الدولة طبعه في ليبسيك ١٨٤٧

ولم يفت ادباءنا العصريين درس هذا الشاعر الكبير فكان من اشهر منتقديه الشيخ ابراهيم اليازجي فنشر فصلاً بليغاً في آخر العرف الطيب المطبوع في بيروت ١٨٨٢ — ١٨٨٤

وقام مؤخراً النقاد المصري المعروف عباس محمود العقّاد فتكلم عن نبوّة المتنبي وسبب شهرته وفلسفته وفنه في فصول قيّمة نشرها اولاً في جريدة البلاغ المصرية وثانياً في كتابه «مطالعات في الكتب والحياة» المطبوع في مصر سنة ١٩٢٤

شعره

شهرته

وما الدهر الّا من رواة قصائدي اذا قلت شعراً اصبح الدهرُ منشدا
فسار به من لا يسير مشمّرًا وغنّى به من لا يغنّي مغرّدًا

هكذا تنبّأ المتنبي عن شعره، وهكذا كان! فلم يكن ينظم القصيدة الّا سارت في بلاد العرب من بلدة الى بلدة ومن مجتمع الى مجتمع، حتى اصبح فريداً بين الادباء في هذه الشهرة التي تمتّع بها في حياته، ولم تكن لتنتهي بعد مرور الف سنة بل تزيد . يدلّك على سعة انتشار شعره، مال حياته، ما رواه احد اصحاب ابن العميد قال: «دخلت عليه يوماً قبل ان يتصل بسه المتنبي — اي قبل سنة ٩٦٥ — فوجدته واجماً . وكانت قد ماتت اخته من قريب، فظننته واجداً لاجلها . فقلت :

«لا يحزن الله الوزير! فما الخبر؟» قال: «انه ليغيظني امر هذا المتنبي، واجتهادي في ان اخمد ذكره! فقد ورد عليَّ نيف وستون كتاباً في التعزية مما منها الا صدر بقوله:

طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ فزعت فيه بآمالي الى الكذبِ
حتى اذا لم يدعْ لي صدقُه املاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل الى اخماد ذكره!» فقلت له: «القدَر لا يُغالَب. الرجل ذو حظ في اشاعة الذكر واشتهار الاسم. فالاولى ان لا تشغل فكرك بهذا الامر»

اما البيتان فهما من قصيدة المتنبي في رثاء اخت سيف الدولة نظمها سنة ٩٦٣م. واما الحادثة المذكورة فوقعت قبل سنة ٩٦٥. فتكون القصيدة جابت البلاد العربية والعجمية في سنة واحدة. وهذا اوضح دليل على تلك الشهرة

اما اسباب هذه الشهرة فمن اقواها فضل الشاعر ومتانة اسلوبه وكثرة الابيات الحكمية المنفردة بمعناها. وما لحق ذلك من منافسة الامراء بمدّاحهم ومداحهم، وذاك العصر عصر الامراء المتنافسين. ويجب الّا ننسى بين اسباب تلك الشهرة فضل الحسد والتحامل على المتنبي، ولله درّ ابي تمام القائل:

واذا اراد الله نشر فضيلة طُويت اتاح لها لسان حسود

الاختلاف فيه — طريقته في المدح والهجاء

وكان من نتيجة الحسد تضارُب الآراء في شعر المتنبي حتى انقسم الادباء قسمين متباينين: قسم يزري بالمتنبي ويتتبع سقطاته وينعي عليه سرقاته وفي مقدمته الصاحب ابن عباد، لان المتنبي لم يحفل به اذ كان مرزًا في بلاد العجم كما تقدّم في ترجمته وقسم يشيد بذكر شاعرنا مفضلًا اياه على الشعراء كافة وكان حامل لواء هذا الحزب ابا العلاء المعرّي. ومن البديهي ان تطاحن الحزبين يوجد حزباً ثالثاً يحافظ على الوسط وينتدب نفسه للحكم، فكان من هؤلاء القاضي الجرجاني وابو منصور الثعالبي

والحقيقة ان المتنبي شاعر عظيم وهو، ككل شاعر عظيم، عظيم الحسنات، وعظيم السيئات ايضاً. وقد اختصّ بالسير على اسلوب شخصي فيما يتعلق باستخراج المعاني الدقيقة والتعبير عنها، والجرأة على استعمال الاستعارات المبتكرة. فكان

هذا الخروج على الاساليب القديمة من اقوى الاسباب لدى شيوخ ابن خلدون حتى اخرجوا المتنبي من هيكل الشعر

اما طريقته في المدح فكانت بين المبتذلة والمبتكرة : مبتذلة لما كان يجاري قدماء العرب في الاستهلال بالغزل والتخلص الى المدح . ولم يكن يتوفق في هذا النوع لقلة شعوره بدوافع الغزل الرقيق ، وقلة صبره في محاولة التخلص اللطيف . وكثيراً ما كانت تأتي تخلصاته تافهة مضحكة كقوله :

علّ الامير يرى ذلّي فيشفع لي عند التي صيّرتني في الهوى مثلا
ايقنت ان سعيداً طالبٌ بدمي لما بصرت به بالرمح معتملا !

او شائنة بينة فساد الذوق ، كتخلصه اذ يريد ان يجعل الناس جهالًا فيركبهم جميعاً الى ممدوحه :

لو استطعتُ ركبت الناس كلّهم الى سعيد بن عبدالله بُمْرانا !

ولكن جنب هذه المدائح المستهلة بالغزل مدائح يرجع فيها المتنبي الى فطرته من حبّ العظمة والرغبة في الحِكَم فيبدأها بابيات اقلّ ما يقال فيها انها على كل لسان منذ الف سنة ، وستبقى الى ما شاء الله . وما قولكم في هذا الاستهلال :

لكل امرئٍ من دهره ما تعوّدا وعادة سيف الدولة الطعن في العدى

وهذا :

على قدر اهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

وهذا :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو اول وهي المكان الثاني !

أمّا في الهجاء فلم يكن يفقه للسخرية معنى ولا يفهم لدغدغة الهجوّ والهزء به طريقة ، ولا يعرف من اساليب الهجاء الا الجرح البليغ القاتل . فهو اذا هجا نفث كل حقده بطريقة لا يترك بها للمهجوّ رجاء . حتى ولو اراد مدحه بعد ذلك لما تمكّن لشدة ما كان يضمر من الحقد ويحفظ من البغض . هذا كافور ! وهذا ابن كَيْغَلَغ ! وهذا ضبّة !

فقد اسقطهم الى الابد بهجائه . ولو غسلهم بمئة قصيدة مدح لما نزع عن اسمائهم جزءاً من تلك الوصمات التي الصقها بهم . وما يفعل الثناء في عبد يقال فيه :

لا تشتر العبد الا والعصا معهُ ان العبيد لأنجاسٌ مناكيدُ
لا يقبض الموتُ نفساً من نفوسهم الا وفي يده من نتنها عودُ

وما يغسل المدح من رجل دُنّس عرضه بمثل هذا القول :

كذا خُلقت ومن ذا الذي يخالف ربّهُ ؟
ان اوحشتك المعالي فانا دار غربهْ
او آستك المخازي فانا لك نسبهْ

هذا مذهب شاعرنا في المديح والهجاء وقد نعود فندرس طريقته في الرثاء والمفاخر ومذهبه الفلسفي في صوغ الحِكَم

فنه ــ قيمته

«وكائنا كان شاعرنا كذلك الميزان الكبير الذي يزن بالاطنان ، فلا يحسب فيه حساب للدراهم ولا يلتفت الى ما يسقط من خرزه من هذه الصغائر والهنات !!!» (١

هذا اصدق تصوير لفن المتنبي . فهو شاعر عظيم يجاريك بالعظمة أنّى واجهته ، حتى اذا اخرجته من ذاك المحيط سقط وركّ لانه مجبول بالجبروت ، مفطور على السيادة ، مطبوع على القوّة . فاذا مدح او هجا او رثا ، او فخر ، فكأنما يُخرج صوراً مختلفة لعظمته ، فيرى مجالي القوّة في كل شيء . فهو ان وصف كتاباً رأى فيه صور السيوف والرماح ، وان اراد الهزء برجلين قتلا جرذاً صوّرهما في معركة . واذا لم يرَ القوة في المعاني ، اخرجها في الالفاظ . اما اذا اجتمع له الامران ، كأن يصف حرباً مثلاً فهناك الابداع على قول ابن الاثير ، فانه «اذا خاض في وصف معركة كان لسانه امضى من نصالها واشجع من ابطالها وقامت اقواله للسامع مقام افعالها حتى يظن ان الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا»

وبالاختصار نرى المتنبي يؤلف نوعاً مفرداً في الآداب العربية ، ويبني حصناً رفيعاً في مجال الشعر العربي . فبينا نشاهد حوله الجماعات من شعراء الغزل اللطيف ، والوصف الدقيق ، والمجون المستملح ، نراه هو وحده «شاعر العظمة !»

(١) عباس محمود العقاد : مطالعات في الكتب والحياة ص : ١٧٧